د. محمد شوقي الزين

الحِجَاجُ الفَلْسَفي

الحصة الثانية

الرَّأي في ضوء الفاصل بين الحق والحقيقة

الحِجَاجُ ظاهِرَةٌ تَفَاعُلِيَّةٌ

- الحِجاج هو الاسمنت المسلَّح لكل الرَّوابط الاجتماعية، يستعمل لغة عادية يُخاطَب بها في المعيش اليومي، لغة مفتوحة على المشاعر والأحكام الممكن بلورتها في تعاملنا مع الغير.

- كل رأي يُقابله حُجَّة. فلا بدَّ أن يكون هنالك انسجام بين الآراء والحجج لتفادي الشعبوية والتضليل. من خاصيَّة الحِجاج أن يترك فُسحَة حرَّة للمتلقّي بأن يُقدِّر الآراء ويزنها بميزان العقل: هل الرَّأي الذي أمامه هو معقول؟ هل يبحث فقط عن النجاعة والتأثير أم له سَنَد أخلاقي تبعاً لما سمَّاه هابرماس «خُلُقية النقاش» (éthique de la discussion)؟

- على أساس أن الحِجاج يرتع في مجال «شبه الحقيقي» أو «مستلاح» (vraisemblable)، فهو لا يبتغي الحقيقة، وإنما مجرَّد الأحقِّية في الطَّرح والدِّفاع عن قضيَّة. أما مسألة قبولها من عدمه، فهي تعود إلى قوَّة الحُجَّة واستعداد المتلقّي.

الحَقُّ وَالحَقِيقَة: الطَّرْحُ الرِّوَاقِيُّ

- «**1.** الحَقِيقَة هِيَ جَسَدٌ (soma) وَالحَقُّ غَيْر مَادِّي (asômaton, incorporel)، لأَنَّ الحَقَّ مَنْطُوقٌ (axiôma) أيْ مُعَبَّرٌ عَنْهُ (lekton)، أيْ غَيْرَ مَادِّي. عَلَى العَكْس مِنْ ذَلِكَ، الحَقِيقَةُ هِيَ جَسَد، لأَنَّهَا "العِلْمُ الذِي يُبْدِي الأَشْيَاء الحَقِيقِيَّة بوَصْفِهَا حَقِيقِيَةً"، وَكُلُّ عِلْمٍ (epistèmè) هُوَ شَكْلٌ مِنَ الحَاكِمَة (hègemonikon) وَالحَاكِمَةُ هِيَ جَسَد؛ **2.** الحَقُّ هُوَ قَضِيَّة بَسِيطَة وَمَعْزُولَة؛ وَالحَقِيقَة، عَلَى العَكْسِ مِنْ ذَلِكَ، بِمَا هِيَ عِلْم فَهِيَ مُنَسَّقَة، وَهِيَ كَثْرَةٌ مِنَ الأَشْيَاءِ الحَقِيقِيَّة؛ ثَمَّة مُمَاثَلَة بَيْنَ العَلَاقَة حَقٌّ-حَقِيقَة وَالعَلَاقَة مُوَاطِن-شَعْب؛ **3.** لَا يَفْتَرِضُ الحَقُّ العِلْمَ بالضَّرُورَة: يُمْكِنُ لِلْمَعْتُوه أنْ يَتَفَوَّهَ بالحَقِّ بقَوْلِهِ "لَقَدْ طَلَعَ النَّهَار" وَبالفِعْل النَّهَارُ يَطْلَع، لَكِنْ لَيْسَ لَهُ العِلْم بِطُلُوعِ النَّهَار. عَلَى العَكْسِ مِنْ ذَلِكَ، الحَقِيقَة هِيَ عِلْم، وَالحَكِيمُ الَّذِي بِحَوْزَتِهِ العِلْم لَا يُخْطِئ أَبَداً وَإِنْ تَفَوَّه بالغَلَط، لأَنَّ بِقَوْلِهِ الغَلَط، يَبْقَى اسْتِعْدَادُهُ سَلِيماً، عَلَى شَاكِلَة الطَّبِيب الَّذِي يَخْدَعُ المَرِيض مِنْ أَجْلِ إِنْقَاذِهِ بقَوْل الغَلَطِ بشَأْنِ صِحَّتِهِ المُتَدَهْوِرَة، أَوْ قَائِد الجَيْش الذِي يَأْتِي بأَخْبَارٍ سَارَّة، لَكِنَّهَا مَغْلُوطَة، مِنْ أَجْلِ الرَّفْع مِنْ مَعْنَوِيَّاتِ الجُنُود».

- CHARTIER Roger dit ALAIN (1891), *La théorie de la connaissance chez les Stoïciens*, annotations et traductions par Bertrand Gibier, Paris, PUF, 1964, p. 17-18.

أحَقِّيَّة الرَّأي دُونَ ادِّعَاءِ الحَقِيقَة

- تُلخِّص هذه الفقرة لوحدها أساسيات كل ما يمكن معرفته حول الحجاج والخطابة التي سنصل إليها في دروس لاحقة. يمكن القول بأن الحِجاج يشتغل في مجال «الحق» وليس «الحقيقة»، الحق الذي لا يعني الحقيقة، بل يعني فقط أحقِّية كل فرد في عرض آرائه التي يمكن أن تطابق الحقيقة أو لا تطابقها.
- الحق هو يفرُّ أو ينساب مثل الرُّوح التي هي غير مادِّية، بينما الحقيقة هي «جَسَد» بالمعنى الذي تكون فيه نسقاً مغلقاً.
- الرَّأي هو فكرة لأنه منطوق ومعبَّر عنه في كلام. الرَّأي، بما هو قضية بسيطة ومنطوق معزول، فهو إذاً ليس الحقيقة التي هي منظومة منسجمة العناصر، ويُشبِّهه الرواقيون بالفرد بالمقارنة مع المجتمع.
- مهما قال الفرد قولاً يمكن عدُّه الحقيقة، إلا أن المجتمع يفرض نفسه بقوَّة الجُموع (مجموع الأفراد الذين يُشكِّلونه) ويُصبح من ثمَّة الحقيقة المفروضة على كل فردٍ على حِدة.

الرَّأيُ بَيْنَ المعْرِفَة الجُزْئِيَّة وَالعِلْمُ الكُلّي

- الرَّأي بما هو حق، فهو إذاً حق منعزل أي معرفة مجزَّأة لا ترتقي إلى العلم الكُلّي. والعلم الكُلّي الذي بحوزة سليم السَّليقة والاستعداد لا يُخطئ وإن غلط صاحبه في موطن الحُكم أو التقدير، لأن الغايات تُسوّغ البدايات، كأن يُعلن قائد الجيش عن قُرب الظَّفر بالنَّصر بينما جيشه منهزم، فقط لتحفيز الجنود على الصُّمود ومواصلة الكفاح.
- نفهم أن الرَّأي الذي يشتغل الحجاج في مجاله ينعطف على المعرفة الجزئية التي ليس لها العلم الكُلّي بالأشياء وخواصها. فقط الحكيم، صاحب العلم الواسع والاستعداد السَّليم، من يمكنه النَّظر بصورة شاملة تحيط بكلِّيَّات الأمور وبأجزائها.
- غير أن هذا التصوُّر العريق لا يلائم ربَّما التصوُّر المعاصر الذي جعل من الحجاج أساس الممارسة الديمقراطية، أي بمعزلٍ عن التَّراتُب (عالم/عارف)، والجنس (الرجل/المرأة) والسِّن (الشاب المبتدئ/الشيخ المحنَّك). أضحى الحجاج مسألة «حقٍّ» بالمعنين المعرفي والديمقراطي، أيًّا كانت «الحقيقة» المراد بلوغها أو العكس عدم مطابقتها.